مجلة الجامعة الإسلامية المجلد العاشر ، العدد الأول ص153–ص193 2002

صورة النكبة في شعر محمود درويش

محمد فؤاد ديب السلطان *

كلية الآداب ــ قسم اللغة العربية ــ جامعة الأقصى

ص.ب 4051 غزة ــ فلسطين

THE DISASTER IN MAHMOOD DARWEESH'S POETRY

Abstract **The disaster had a great effect on exploring the poetic talent of Mahmood Darweesh and deepening his experience through employing the humanitarian heritage so that his poetry is considered as the changing point in the Arab poetry in its structure or content.**

Moreover, the poet's love to his country reflects his duration to land which has its significance. Besides that , his love for the woman is equal to the land .

In spite of the poet's sufferings he was not pessimistic in his poetry but on the contrary the disaster made him more resistant and challenging .

ملخص أثرت النكبة في تفجير موهبة محمود درويش الشعرية وتعميق تجربته من خلال استخدام التراث الإنساني وتوظيفه ليجيء شعره علامة فارقة ، ونقطه تحول في تاريخ الشعر العربي سواء على صعيد شكل القصيدة أو مضمونها.

كما ارتبط حب محمود درويش للوطن بكل ماله علاقة بالأرض من دوال ومدلولات ، كما ارتبط بحبه للمرأة باعتبارها المعادل الموضوعي للأرض .

من هنا لم يكن شاعرنا رغم المعاناة سوداويا أو متشائماً في شعره ، فلم تزده النكبة والألم إلا صلابة وصموداً وتحدياً .

صورة النكبة في شعر محمود درويش

تمهيد

أ. مفهوم النكبة

ب. نبذة عن محمود درويش

المبحث الأول : الآثار السلبية للنكبة في شعره

ـــ فقدان الهوية

ـــ اللجوء والمعاناة

المبحث الثاني : الآثار الإيجابية للنكبة في شعره

ـــ التمسك بالأرض

ـــ الشوق والحنين للوطن

ـــ الصمود والمقاومة

مقدمة

يرجع اختياري هذا الموضوع لسببين **الأول** موضوع النكبة التي هزت القاصي والداني وأثارت مشاعر الأدباء في مختلف بلاد العروبة والإسلام ، فضلاً عن كونها علامة فارقة في الحياة السياسية والأدبية في عالمنا العربي عامة والفلسطينية خاصة.**والثاني** عند محمود درويش بالذات يرجع إلى الخصوصية الشعرية التي يتميز بها إنتاجه الشعري ، والخصائص الأسلوبية والجمالية التي يتميز بها شعره ، فضلاً عن كونه عاش النكبة بكل أبعادها وآثارها وكان خير من يعبر عنها كشاهد وشاعر في الوقت ذاته.

– أما بالنسبة للدراسة ، فقد اشتملت على مبحثين ، تناولت في المبحث الأول الآثار السلبية للنكبة في شعر محمود درويش ، من فقدان للهوية ، واللجوء والمعاناة . وعالجت في المبحث الثاني الآثار الإيجابية للنكبة في شعر محمود درويش ، كالتمسك بالأرض ، والشوق والحنين للوطن ، والصمود والمقاومة .

أ. مفهوم النكبة وأبعادها

الحديث عن النكبة موجع للقلب ، فلم تكن النكبة وليدة أحداثها بل كانت متوقعة وقد حذر منها الشعراء والكتاب والساسة الذين كان لديهم رؤية مستقبلية لاستشراف الأحداث قبل وقوعها .

من ذلك ما جاء على لسان الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود في قصيدة ألقاها يوم زيارة ولي العهد السعودي الأمير سعود بن عبد العزيز لفلسطين سنة 1935م حيث قال :

ضمت على الشكوى المريرة أضلعه يا ذا الأمير أمام عينك شاعر
أم جئت من قبل الضياع تودعه المسجد الأقصى أجئت تزوره

وليس من المصادفة أن يتنبأ إبراهيم طوقان 1905م – 1941م حيث قال :

تشيب لهولة سود النواحي أمامك أيها العربي يوم
وسار حديثه بين الأقاصي مصيرك بات يلمسه الأداني
لصاحبه ولا ضيق الخصاص[1] فلا رحب الفضاء غداً بباق

" في الخامس عشر من شهر مايو (آيار) لسنة 1948م وقعت النكبة وكان ذلك انتصاراً ساحقاً لليهود مكنهم من طرد العرب من الجزء المخصص لهم ، وإعلان الدولة اليهودية في يوم انتهاء الانتداب ، وكانوا قد أعدوا لهذا الأمر عدته "[2]

كانت النتائج على المستوى الفلسطيني كارثة وطنية قلما شهد التاريخ لها مثيلاً .

إذ استولت إسرائيل على 56.47% من مساحة فلسطين ، وهو الجزء الذي خصص لهم بموجب قرار التقسيم ، كما استولوا على 20.93% من الجزء المخصص للعرب، فأصبحت دولتهم تشغل 77.4% من مساحة فلسطين ، بأغلبية يهودية وصلت إلى83% من السكان بعد ترحيل أهلها من الفلسطينيين ، ولم يبق للعرب سوى 21.3% عرفت باسم الضفة الغربية وأصبحت جزءاً من المملكة الأردنية الهاشمية ، و1.3% وهو ما يعرف بقطاع غزة من مساحة فلسطين والذي خضع للإدارة المصرية ، كما طرد أكثر من 900 ألف عربي فلسطيني من بيوتهم وأراضيهم وأصبحوا لاجئين ، توزعوا على مناطق

مختلفة على ضفتي الأردن ، وقطاع غزة ، ولبنان وسوريا ومصر والعراق والجزيرة العربية وبريطانيا وغيرها ، ولم يبقَ في القسم المحتل من فلسطين سوى 170 ألف عربي إنها النكبة حقاً ، بالعرب قاطبة ، وبالفلسطينيين خاصة ، وبسكان المناطق التي احتلها اليهود بوجه أخص .

وقد أكد الأب الروحي لحركة القوميين العرب قسطنطين زريق بأن هزيمة العرب وتراجع جيوشها السبعة وتخاذل حكامها ليست " بالنكسة البسيطة أو بالشر الهين العابر، وإنما هي نكبة بكل ما في هذه الكلمة من معنى ومحنة ، من أشد ما ابتلي به العرب في تاريخهم الطويل على ما فيه من محن ومآسٍ" [3]

ومع ذلك يمكن لنا أن نقول : إن عرب فلسطين – إذا استثنينا بعض الساسة والمنتفعين من السماسرة صمدوا وناضلوا وقاتلوا وضحوا بالغالي والرخيص ، وقدموا آلاف الشهداء للحيلولة دون وقوع هذه النكبة ، إلا أن الإمبراطورية البريطانية والولايات المتحدة وجميع الدول الغربية ألقت بكل ثقلها وراء الحركة الصهيونية العالمية ، كما أن الحكومات العربية كانت خاضعة للسيطرة الأجنبية تأتمر بأوامرها ، وقد كانت موافقة سراً على التقسيم ، وعلى استلام اليهود للقسم الذي خصص لهم بموجب قرار التقسيم .

وكان من آثار النكبة ، أن " انتهت الحياة السياسية الفلسطينية بانتهاء القوى السياسية التي نشطت قبل النكبة ، ولم يبق منها إلا تلك التي كانت جزءاً من حركة سياسية وأيديولوجية أوسع مثل حركة الإخوان المسلمين ، والحزب الشيوعي " . [4]

وقد أحدثت النكبة انقلاباً سياسياً وفكرياً وأدبياً في عالمنا العربي ، وثورة جامحة على الحكام والملوك والقادة الذين أداروا دفة السياسية أثناء حرب فلسطين ، فحدث انقلاب حسني الزعيم في سوريا في الثلاثين من مارس سنة 1948م ولقي الملك عبد الله مصرعه ، وقامت ثورة 23 يوليو في مصر 1952م، وظهور حركة الشعر الحر .

فلعل الشاعر العربي الكبير ، نزار قباني ، أجمل أسباب النكبة ، في رائعته "هوامش على دفتر النكسة ([5])" حيث قال

* إذا خسرنا الحرب لا غرابة
لأننا ندخلها

بكل ما يملكه الشرقي من مواهب الخطابة
بالعنتريات التي ما قتلت ذبابة
لأننا ندخلها
بمنطق الطبلة والربابة
صراخنا أضخم من أصواتنا
وسيفنا
أطول من قاماتنا
وعليه يصل قباني إلى استنتاج مؤداه :
ما دخل اليهود من حدودنا
وإنما
تسربوا كالنمل من عيوبنا .

ويحدد نزار ملامح هذا الجيل الذي يمكن له أن يتغلب على آثار النكبة بقوله

نريد جيلاً يفلح الآفاق
وينكش التاريخ في جذوره
وينكش الفكر من الأعماق
نريد جيلاً قادماً مختلف الملامح
لا يغفر الأخطاء ، لا يسامح
لا ينحني .. لا يعرف النفاق
نريد جيلاً ، رائداً عملاق

ب . محمود درويش

" ولد محمود سليم حسين درويش في الثالث عشر من مارس سنة 1941م في قرية البروة قضاء عكا ، ونشأ في أسرة تتكون من ثمانية أبناء ، خمسة أولاد وثلاث بنات، وهو الابن الثاني ، أما أبوه فهو فلاح متواضع كان يملك بعض الأراضي ، انتقل بعد الهجرة إلى قرية الجديدة ، وبات لا يملك شيئاً ، أما الأم فهي من قرية " الدامون " وهي لا تقرأ ولا تكتب ، وبعد النكبة الأولى 1948م تشتت أهل قريته وتوزعوا في البلاد،

بعد أن هدمت القرية" ([6]) ، **وقد ذكر محمود درويش ذلك في لقاء صحفي معه مع صحيفة إسرائيلية تصدر بالعبرية ، وقد نقلت عنها مجلة الآداب البيروتية في إبريل سنة 1970م يقول**

" اذكر نفسي عندما كان عمري ست سنوات ، كنت أقيم في قرية جميلة وهادئة في قرية " البروة " الواقعة على هضبة خضراء ينبسط أمامها سهل عكا ، وكنت ابناً لأسرة متوسطة الحال ، عاشت في الزراعة ، عندما بلغت السابعة توقفت ألعاب الطفولة ... أذكر كيف حدث ذلك : أذكر ذلك تماماً .

ففي إحدى ليالي الصيف التي اعتاد فيها القرويون أن يناموا على سطوح المنازل ؛ أيقظتني أمي فجأة ، فوجدت نفسي مع مئات من سكان القرى أعدو في الغابة ، كان الرصاص يتطاير فوق رؤوسنا ، ولم أفهم شيئاً مما يجري ، وبعد ليلة من التشرد والهروب ، وصلت مع أحد أقاربي إلى لبنان ... تساءلت بسذاجة أين أنا ؟ وسمعت للمرة الأولى كلمة لبنان " [(7)]

أكمل دراسته في الأراضي المحتلة حتى نال الشهادة الثانوية من كفر ياسيف ، ثم اتجه للعمل في الصحافة العربية التي تصدر في الأرض المحتلة ، فعمل صحفياً ومحرراً في جريدة (الاتحاد)، وفي مجلة (الفجر) تعرض للاعتقال والسجن أكثر من مرة ، لنشاطه السياسي حيث كان عضو حزب الحركة الشيوعية (1961) في الأرض المحتلة ، ثم اختار المنفى في القاهرة (1971م) ثم في بيروت ثم انتقل إلى باريس ثم قبرص حيث عمل رئيساً لتحرير مجلة الكرمل في نقوسيا .

ثم انتقل إلى تونس ، وعرف طعم الغربة والبعد عن الوطن ، شهد حرب لبنان 1982م واختير رئيساً لاتحاد الصحفيين الفلسطينيين في سنة 1987م .

وفي لقاء مع محمود درويش أجرته مجلة الجبل [(8)] يقول

"جزء كبير من أبناء جيلنا تم تكوينه سيكولوجيا وثقافياً في بيروت ، ولذلك فإن التعامل العاطفي مع بيروت ليس تعاملاً عادياً .. ولكن أكثر ما يجرحني الآن من بيروت في هذه المرحلة هو مجرد اسم بيروت ، لأنني أشعر أن هذا الاسم الآن هو سكين يشقني إلى نصفين ، ويرمي إلى الشارع بجزء من حياتي العامة كشخص ينتمي إلى الثورة

الفلسطينية بكل مراحل تطورها ، وكشاعر أيضاً ، لأن بيروت من المدن القليلة الموحية والملهمة ، ومن صعوبة الكلام عن بيروت هو عدم قابليتها للتفسير ، وكون بيروت مدينة غامضة لا يعرف أحد لماذا يحبها؟ بيروت ستقضي عمراً طويلاً في التأتأة عن جمالها الغامض ، وعن وجعها دون أن نعرف لماذا أحببناها ؟ ولماذا أحبتنا ؟! تحررنا فيها وتحررت فينا " .

وعن مسيرته الشعرية يحدثنا محمود درويش قائلاً

" بدأت شاعراً رومانسياً ليس بالمعنى التاريخي لكلمة رومانسية ، إنما كشاعر يستعمل أدوات غنائية بسيطة للتعبير عن عمر تجربته ، وتطورت رومانسيتي من رومانسية حالمة إلى رومانسية ثورية أو نضالية . ثم تعقدت أشكال تعبيرية [9] .

المبحث الأول : الآثار السلبية للنكبة

مما لا شك فيه أن النكبة الأولى في سنة 1948م ألقت بظلالها على كل ما هو فلسطيني ولا نبالغ عندما نقول : على كل ما هو عربي ،ومن ضمن ما تعرضت له مدن وقرى فلسطين من مآسٍ كانت قرية شاعرنا محمود درويش "البروة" حيث قتل عدد من أهلها بعد تدميرها وتشتيت من بقي منهم على قيد الحياة .

فقدان الهوية

وبعد رحلة مضنية قضاها شاعرنا في لبنان ، عاد برفقة عمه إلى قرية غير قريته بفلسطين وهي " دير الأسد " التي مكث فيها لاجئاً ، لا حق له في الإقامة في وطنه ولا جواز سفر لديه ، ولا يحق له أن يقول إن جنسيته فلسطينية .

وقد عبر عن ذلك بقصيدته التي قدمته للشعر العربي باعتبارها بطاقة هوية أو جواز السفر المفقود ، والتي جرت على كل لسان ، ومن خلالها ولد محمود درويش شعرياً ، **يقول فيها**

سجِّلْ !

أنا عربي

ورقم بطاقتي خمسون ألفْ
وأطفالي ثمانيةٌ
وتاسِعُهم ... سيأتي بعد صيفْ !
فهل تغضب
.....
سجِّلْ !
أنا عربي
وأعمل مع رفاق الكدح في محجر
وأطفالي ثمانيةٌ
أسلُّ لهم رغيف الخبز ،
والأثواب والدفتر
من الصخر ..
ولا أتوسل الصدقات من بابك
ولا أصغر
أمام بلاط أعتابك
فهل تغضب (10)

ومن اللافت للنظر أن شاعرنا المتكلم شعب بصيغة المفرد عربي في دولة إسرائيل المعادية للعرب ، والتي أكثر ما يقلقها النمو السكاني السريع للعرب في فلسطين المحتلة ، كذلك صيغة الخطاب بلهجة الأمر (سجِّل) ، والاستفهام الاستفزازي (فهل تغضب) ؟ والأمر والاستفهام يقترنان بالتحدي الخفي ، وهو ما يمكن أن نسميه حرب الهوية ، لا سيما أنه يمس العصب الوطني والقومي ، وقد جعله محمود درويش لازمة ختامية يتم تكرارها ، أربع مرات في مقاطع القصيدة الخمسة ، مما يساهم في تجذير الحضور الإنساني والتاريخي المقتلع من خلال التأكيد على تمسكه بجذوره العميقة في التاريخ ، وتأكيد أصالة الانتماء إلى عناصر الطبيعة وغرس أوتاره في الأرض باعتباره فلاحاً من أسرة المحراث التي زادتها الشمس شموخاً وصلابة ، يقول :

سجِّلْ !
أنا عربي
أنا إسم[11] بلا لقب
صبور في بلاد كل ما فيها
يعيش بفورة الغضب
جذوري ..
قبل ميلاد الزمان رست
وقبل تفتح الحقب
وقبل السرو والزيتون
وقبل ترعرع العشب
أبي من أسرة المحراث
لا من سادة نجب
وجدي كان فلاحاً
بلا حسب ولا نسب !
يعلمني شموخ الشمس قبل قراءة الكتب
وبيتي كوخ ناطور
من الأعواد والقصب
فهل ترضيك منزلتي ؟
أنا إسم بلا لقب [12]!

وقد عبر عن ذلك الحرمان من الجنسية في وطنه بقصيدته الرائعة "جواز السفر" التي ربط فيها بينه وبين طبيعة بلاده بما فيها من عصافير وشجر ومطر وقمر وســـنابل ومطارات ودموع ومناديل ، مشهد يجسد عمق المأساة ، **يقول فيها**

لم يعرفوني في الظلال التي
تمتص لوني في جواز السفر
وكان جرحي عندهم معرضاً

لسائح يعشق جمع الصور
لم يعرفوني ، آه ... ... لا تتركي
كفي بلا شمسٍ ،
لأن الشجر
يعرفني
تعرفني كل أغاني المطر
لا تتركني شاحباً كالقمر !
كل العصافير التي لاحقت
كفى على باب المطار البعيد
كل حقول القمح ،
كل السجون
كل القبور البيض
كل الحدود ...
كل المناديل التي لوحت
كل العيون
كانت معي ، لكنهم
قد أسقطوها من جواز السفر [13]!

وبهذا يكون محمود درويش قد لمس الواقع الحسي بكلمات يسهل تأطيرها خارجياً واستطاع توظيف اللغة الشعرية بكفاءة وفعالية على نحو هذا الشكل الجمالي مستخدماً الأرقام بإشارتها الواقعية التي تمس جوهر الصراع الوطني والقومي على حد سواء وقد نجح شاعرنا في نقل مركز الصراع من الذات إلى العالم من الهوية إلى الأرض ، التي تمثل البطاقة الجامعية للشخصية الفلسطينية .

اللجوء والمعاناة : لعل اللجوء والنزوح من أكثر ما أرق محمود درويش في حياته فقد عاشه صغيراً وكبيراً ، وها هو يقدم لنفسه صورة ذاتية كنموذج شخصي وقومي ، فهو طيب القلب وخجول من شعبه اللاجئ المشرد في العراء، مما يثير في عشيقته اليهودية "

شلوميت " إنسانيتها التي تغطيها ورقة الموز القومية في اللحظة التي تخصف عنها ورق الجنة مثل أمها حواء .

يقول : من قصيدة بعنوان " كتابة على ضوء بندقية "

كان محمود صديقاً طيب القلب ،
خجولاً كان ، لا يطلب منها
غير أن تفهم أن اللاجئين
أمة تشعر بالبرد
وبالشوق إلى أرض سليبة
وحبيباً صار فيما بعد ،
لكن الشبابيك التي يفتحها
في آخر الليل .. رهيبة (14)

فقد نجح الشاعر في توصيل رسالته الإنسانية إلى كل قلب يخفق بشعور إنسـاني نبيل ، لما يتعرض له اللاجئ الفلسطيني من نزوح ومعاناة بعد أن سلبه العـدو أرضـه وألقى به في العراء .

وفي قصيدة بعنوان (الخروج من ساحل البحر الأبيض المتوسط) يربط محمود درويش فيها بين ما يتعرض له الشعب الفلسطيني من تهجير ومضايقة ، وبين خروج بني إسرائيل القديم ، مشيراً إلى احتواء الفلسطينيين في الدول التي هاجروا إليها ، وخـروجهم بعد حرب أيلول سنة 1970م من الأردن إلى سورية ولبنان ، **يقول**

وتقاسمتني هذه الأمم القريبة والبعيدة
كل قاض كان جزاراً
تدرج في النبوءة والخطيئة
واختلفنا حين صار الكل في جزءٍ ؟
وصار الجرح وردتنا جميعاً
وابتعدنا
اذهب إلى الموت الجميل

ذهبت
وحدي كنت
قلتم : نحن ننتظر الجنازة بالأكاليل الكبيرة والطبول
ونلتقي في القدس
...
بدموع هاجر . كانت الصحراء جالسة على جلدي
وأول دمعة في الأرض كانت دمعةً عربية
هل تذكرون دموع هاجر أول امرأة بكت في
هجرة لا تنتهي ؟
يا هاجر ، احتفلي بهجرتي الجديدة من ضلوع القبر
حتى الكون انهض
يسكن الشهداء أضلاعي الطليقة
ثم امتشق القبور وساحل المتوسط
احتفلي بهجرتي الجديدة (15)

ــ وهكذا يقدم صورة ساخرة لموقف الأنظمة العربية المتفرجة على قوافل الشهداء ، ورحيل الفدائيين الفلسطينيين من خطوط المواجهة مع العدو الصهيوني . وقد أخذت المعاناة في شعر محمود درويش أشكالاً ورموزاً عديدة، وقد استطاع توظيف عناصر الطبيعة الفلسطينية :كالليل ، والبحر والريح والعواصف ، والدخان والغبار ، والزلازل والأمطار ، والغيوم ، والقمر ، والشمس ، والنار ، والأشباح ، والصليب ، وغيرها .
من خلال تفريغ هذه الألفاظ من معانيها المعجمية ، وشحنها بمعانٍ ودلالات قادرة على الاستجابة العاطفية الدافقة ، والمترعة بدراميتها القومية والإنسانية .

يقول من قصيدة بعنوان " يوميات جرح فلسطيني " مصوراً عمق الجراح والمأساة والمعاناة

صوتك الليلة
سكين وجرح وضماد
ونعاس جاء من صمت الضحايا

أين أهلي ؟
خرجوا من خيمة المنفى ، وعادوا
مرة أخرى سبايا

ويوظف شاعرنا الليل والمساء باعتبارهما رمزين طبيعيين على القسوة والظلـم الذي أوقعه العدو الصهيوني على شعبنا الفلسطيني في قصيدة بعنوان "رسالة من المنفـى" **يقول فيها**

الليل – يا أماه – ذئب جائع سفاحْ
يطارد الغريب أينما مضى
ويفتح الآفاق للأشباح
وغابة الصفصاف لم تزل تعانق الرياح
ماذا جنينا نحن يا أماه ؟
حتى نموت مرتين
فمرة نموت في الحياة
ومرة نموت عند الموت !
هل تعلمين ما الذي يملأني بكاء ؟
هبني مرضتُ ليلةً .. وهد جسمي الداء !
هل يذكر المساء
مهاجراً أتى هنا .. ولم يعد إلى الوطن ؟
هل يذكر المساء
مهاجراً مات بلا كفن [16] ؟

ويصور الليل رمز الظلم والموت والقهر الصهيوني في قصيدة بعنوان : " مديح الظل العالي " في أكثر من موضع ، **يقول**

ليلٌ طويل
يرصد الأحلام في صبرا
وصبرا – نائمة

صبرا – بقايا الكف في جسدٍ قتيلٍ
ودعت فرسانها وزمانها
واستسلمت للنوم من تعبٍ ، ومن عربٍ رموها خلفهم
صبرا – وما ينسى الجنودُ الراحلون من الجليل
لا تشتري وتبيعُ إلا صمتها
من أجل ورد للضفيرة
صبرا – تغني نصفها المفقود بين البحر والحرب الأخيرة :
لم ترحلون
وتتركون نساءكم في بطن ليلٍ من حديد ؟ (17)

وتأخذ المعاناة رمزاً آخر عند محمود درويش وهو " البحر " الذي ضرب به المثل في الخير والعطاء والكرم والتطهير ، غير أن شاعرنا يشحن هذا الرمز بدلالات مختلفة عما هو مألوف عنه ، يجيء رمزاً للضياع والظلم والقهر والتسلط ، يقول من قصيدته مديح الظل العالي

بحر لأيلول الجديد ، خريفنا يدنو من الأبواب
بحر للنشيد المر . هيأنا لبيروت القصيدة كلها
بحر لمنتصف الليل
بحر لرايات الحمام ، لظلنا لسلاحنا الفردي
بحر للزمان المستعار
ليديك ، كم من موجة سرقت يديك
من الإشارة وانتظاري
ضع شكلنا للبحر ، ضع كيس العواصف عند أول صخرةٍ
واحمل فراغك .. وانكساري (18)

فالبحر رمز الشتات والرحيل والهجرة ، كما هو رمز للعدوان الغاشم والطغيان، وهي واضحة في هذا المقطع ؛ إذ تنبعث من البحر رائحة الشتات الفلسطيني منذ الهجرة

سنة 1948م ، مروراً بهجرة سنة 1967م ، وحتى بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان سنة 1982م .

وفي قصيدة بعنوان " نسافر كالناس " يقول في موضع آخر عن المعاناة المتمثلة في الهجرة عبر البحار

نسافر كالناس ، لكننا لا نعود إلى أي شيء ... كأن السفر
طريق الغيوم . دفنَّا أحبتنا في ظلال الغيوم وبين جذوع الشجر
وقلنا لزوجاتنا : لدِن منا مئات السنين لنكمل هذا الرحيل
إلى ساعة من بلاد ، ومتر من المستحيل .
نسافر في عربات المزامير ، نرقد في خيمة الأنبياء ، ونخرج من كلمات الغجر نقيس الفضاء ، وبمنقار هُدْهُدَة أو نغني لنلهي المسافة عنا ونغسل ضوء القمر طويل طريقك فاحلم بسبع نساءٍ لتحملَ هذا الطريق الطويل .
على كتفيك ، وهز لهن النخيل لتعرف أسماءَهن ومن أي أم سيولد طفل الجليل
لنا بلد من كلام ، تكلم لأسدد دربي على حجر من حجر
لنا بلد من كلام تكلم تكلم لنعرف حداً لهذا السفر [19]

وببراعة شاعرنا المعهودة يوظف التراث الديني في حادثة " الإفك " ليصور مدى المعاناة التي يلقاها الإنسان الفلسطيني ، والمتمثلة في البحر والموج والغرق الذي يرمز به للرحيل من ناحية وللعدو الصهيوني ومن يقفون وراءه من ناحية أخرى . **يقول**

ألف شباك على البحر الذي قد أغرق الإغريق
كي يغرقنا الرومان
بيضاء هي الجدران
زرقاء هي الموجة
سوداء هي البهجة
والفكرة مرآة الدماء الطائشة
فلتحاكم عائشة
ولتبرأ عائشة

ألا لا شيء يثير الروح في هذا المكان [20]

وتشكل دوال الريح والعواصف والبرق والدخان والغبار معادلاً موضوعياً للمعاناة والمآسي التي أصابت شعبنا الفلسطيني ، ورغم هذه المحن يبقى لدى شاعرنا الأمل في التغلب على تلك الصعاب بإرادة الإنسان الفلسطيني وبالغد الذي يحمل الأمل في التخلص من هذا العدو الغاشم .

يصور ذلك في قصيدة بعنوان " السجين والقمر " يقول فيها

* علمان نحن ، على تماثيل الغيوم الفستقية
بالحب محكومان ، باللون المغنى ؟
كل الليالي السود تسقط في أغانينا ضحية
والضوء يشرب ليل أحزاني وسجني
فتعال ، مازال لقصتنا بقية !
سأحدث السجَّان ، حين يراك
عن حب قديم
فلربما وصل الحديث بنا إلى ثمن الأغاني
هذا أنا في القيد أمتشق النجوم
وهو الذي يقتات ، حراً من دخاني
ومن السلاسل والوجوم !
الريح منزلنا ،
وصوت حبيبتي قُبَلُ
وكنت الموعدا
لكنهم جاؤوا من المدن القديمة
من أقاليم الدخان
كي يسحبوها من شرايين
فعانقت المدى
والموت والميلاد في وطني المؤله توأمان ! ([21])

فالغيوم ، والليالي السود ، والسجان ، والدخان ، والسلاسل والريح كل هذه الألفاظ رمز للموت والمعاناة ، والظلم الصهيوني ، لكن الميلاد يبقى رمزاً للأمل في التغلب على هذه المحن والصعاب .

وها هي الريح رمز الاحتلال الظالم تتعاطى جراح الشاعر حبوباً لمنع الحروب.

يقول

ولماذا أنا
أتشرد أو أتبدد
بين الرياح وبين الشعوب ؟
لا تذهب الآن ، إن الرياح على خطأ دائماً
كنت أعلن أن رحيلي قريب
وأن الرياح وأن الشعوب
تتعاطى جراحي حبوباً لمنع الحروب [22]

وتتجلى في النص السابق خاصية " التقابل " عند شاعرنا محمود درويش في أسلوب القطع والانتقال ، حيث ينتقل الخطاب من معنى إلى آخر في جمل صغيرة كقوله بلسان المتكلم " أتشرد أو أتبدد " والنهي للمخاطب بقوله " لا تذهب الآن " وقوله " كنت أعلن أن رحيلي قريب " .

ولا يخفى ما لهذا التقابل من قيمة أسلوبية كبيرة إذ إنها تعكس تقابلاً بين صوت " كان " وهو صوت مقيد بزمان كان الشاعر ظرفاً فيه ، ومعنى ثابت لا يتغير بزمان وهو الجملة الاسمية .

ويتحول القمر رمز الحب والجمال عند شاعرنا إلى رمز العدو الصهيوني ، وكذلك الريح والمطر ترمز إلى المعاناة التي يئن تحت وطأتها الإنسان الفلسطيني .

يقول

اذهبي يا حبيبتي
فوق رمشي ... أو الوتر
قمر جارح

وصمت
يكسر الريح والمطر
يجعل النهر إبرةً
في يد تنسج الشجر [23]

وها هي الريح رمز العدو الشرير تسقط أوراق التين رمز التجـذر الفلسـطيني والهوية الفلسطينية المرتبطة بالأرض المباركة ، **يقول**

المولود صبي
ثالثهم
والثدي شحيح
والريح
ذرَّت أوراق التين
حزنت قارئة الرمل
وردت لي
همساً
هذا الغصن الحزين [24]!

ويتفنن شاعرنا في تصوير المعاناة والعذاب اليومي للإنسان الفلسطيني ، فيتخـذ من صورة المسيح ، والصلب والصليب رمز المعاناة والتضحية ، من خـلال استحضـار التراث المسيحي الذي له علاقة وثيقة بفلسطين ، وبالظلم الواقع على الإنسان الفلسطيني ؛ منذ المسيح عليه السلام وإلى يومنا هذا ، من رحيل وتشريد وظلم وقتل ومؤامرات يشـكل دائماً اليهود أبطالها .

يقول في قصيدة بعنوان " المغني على صليب الألم "

المغني على صليب الألم
جرحه ساطع كنجم
قال للناس حوله
كل شيء ... سوى الندم : هكذا متُ واقفاً

واقفاً مت كالشجر
هكذا يصبح الصليب
منبراً وعصا نغم
ومساميره .. وتر (25)

ورمزاً لصليب ما يزال يلح على شاعرنا ، إذ يشير إلى الجو النفسي لمحمود درويش من ناحية باعتباره أحد أبناء فلسطين الذين عانوا العذاب والظلم ، كما يشير إلى القضية الفلسطينية المصلوبة من قبل الاحتلال بمسامير العرب ، على خشبة التحضر الغربي . **يقول**

" آلو : أريد يسوع
نعم ! من أنت ؟
أنا أحكي من إسرائيل
وفي قدمي مسامير ، وإكليل
من الأشواك أحمله
فأي سبيل
أختاريا بن الله أي سبيل ؟ (1)

ورغم شدة المعاناة ، لم يفقد شاعرنا الأمل في التخلص من هذه المعانـــاة ومـــن الظلم الصهيوني المستمر فربما تشتي السماء وتطفئ هذه النيران فيتخلص من هذه المحنة وهذا العذاب .

يقول

" من غابة الزيتون .
جاء الصدى ...
وكنت مصلوباً على النار !
أقول للغرباء : لا تنهشي
فربما أرجعُ للدار
فربما تشتي السما ... ربما

تطفئ هذا الخشب الضاري
أنزل يوماً عن صليبي ... ترى
كيف أعود صافياً ... عاري ! ؟ (26)

ولم يبق أمام شاعرنا إلا الحلم ، بعد أن أفقدته النكبة أهله وبيته ووطنه بطبيعته الساحرة الغنية بأشجارها المثمرة ومقدساتها ، يحلم بالحبيبة والعرس ، ويحلم بالزيتون بأسوار القدس المنيعة ، التي استعصت على الغزاة على مر التاريخ ، يحلم برائحة اللوز والتين ، بالأهل بكل شيء يربطه ويذكره بالوطن ، وبعاصمة الوطن المقدسة ، لكنه يصحو من أحلامه طالباً السماح من مدينته العتيقة التي ترزخ تحت ظلم الاحتلال ، فليست الأحلام إلا شاهداً على خيبة الأمل والهروب والعجز عن المواجهة وتغيير الواقع المرير .

يقول من قصيدة بعنوان (اعتذار)

حلمت بعرس الطفولة
بعينين واسعتين حلمت
حلمت بذات الجديلة
حلمت بزيتونة لا تباع
ببعض قروش قليلة
حلمت بأسوار تاريخك المستحيلة
حلمت برائحة اللوز
تشعل حزن الليالي الطويلة بأهلي حلمت ..
بساعد أختي
سيلتف حولي وشاح بطولة
حلمت بليلة صيف
بسلة تين
حلمت كثيراً
كثيراً حلمت

إذن سامحيني !! [27]

المبحث الثاني
الآثار الإيجابية للنكبة

على الرغم من الآثار السلبية للنكبة التي عاشها محمود درويش صغيراً كالتشرد والرحيل والمعاناة والملاحقة والسجن والإقامة الجبرية في كثير من الأوقات ، فلم يكن شاعرنا " سوداوياً متشائماً " بل متفائلاً رغم ألوان العذاب التي تعرض لها من جراء قضيته وجرحه الفلسطيني .

فلم تزد النكبة محمود درويش إلا صلابة ، فهو لا يعبأ بظواهر الحياة العادية ، ولا يعبأ بالألم والمعاناة والتشريد والسجن والقتل والمذابح ، فتلك أمور لا تنال من رؤيته وحضوره الشعري تجاه قضيته العادلة .

- **التمسك بالأرض :** فقد نمَّت النكبة حبه لوطنه الذي ارتبط بحبه للأرض التي أصبحت رمزاً للهوية الفلسطينية ، وأصبح الالتصاق بها وجهاً من وجوه النضال، وهذا ما نلمسه في معظم قصائد محمود درويش .

فالدوال التي ترتبط بالأرض في شعره كثيرة منها " الأرض – التراب – الطين – الثرى – الرمل – الجبل – الحصى – الصخور – الحجر – التلال – الربى – الذرى – البر – القمم – الهضاب – البراري – البيد – الفلا – السفوح – الوحل – الصلصال – اليابس – الكثب. فقد تكررت هذه الدوال في أشعاره 977 مرة بنسبة 25.5% من مجموع مفرداته ودواوينه التي تبلغ حوالي 40000 مفردة ، وبلغ تكرار دال الأرض حوالي 297مرة أي حوالي 30% من مجموع المفردات "([28]) وقد وسع محمود درويش في إطار الأرض ، وأصبح يحمل في طياته مدلولات أخرى رمز لها بالأرض:" الأرض – الوطن ، الأرض – الأم ، الأرض – الحبيبة ، الأرض – الإنسان، الأرض – العالم ، الأرض – التراب ، الأرض – الحلم ... وجميع هذه الدلالات على تنوعها بجمعها مشترك دلالي واحد هو العطاء المتواصل ، والتضحية المستمرة " [29].

ففي قصيدة بعنوان " يوميات جرح فلسطيني يؤكد شاعرنا تشبثه بالأرض وتعلقه بوطنه يقول في المقطع الحادي عشر

هذه الأرض التي تمتص جلد الشهداء
تعد الصيف بقمح وكواكب
فاعبديها !
نحن في أحشائها ملح وماء
وعلى أحضانها جرح .. يحارب

ويقول في المقطع الرابع عشر

آه يا حرجي المكابر
وطني ليس حقيبة
وأنا لست مسافر
إنني العاشق والأرض حبيبة !

ويقول في المقطع السابع عشر

وترعرعتُ على الجرح ، وما قلت لأمي
ما الذي يجعلها في الليل خيمةْ
أنا ما ضيعت ينبوعي وعنواني واسمي
ولذا أبصرت في أسمائها
مليون نجمة

ويقول في المقطع الثالث والعشرين :

غيمة الصيف التي .. يحملها ظهر الهزيمة
علقت نسل السلاطين
على جبل السراب
وأنا المقتول والمولود في ليل الجريمة
ها أنا ازددت التصاقاً بالتراب ! (30)

ويتجاوز شاعرنا الواقع إلى الحلم المشتعل بحب القدس ، التي جعلتـه يتجـاوز جراحه باستشفاف رموز تعطي القصيدة شكل صلاة حيناً ، وشكل هذيان حينـاً آخـر ، نتيجة التراكيب المعقدة لهذه القصيدة ، حيث تتداخل صوره ، وتتشـابك معانيـه ، فهـذا المسيح يخرج من الجرح والريح ، وحلم الصعود إلى القدس بعد طرد الغزاة ، ومخاطبتـه وطن الأنبياء أن يتكامل وتحديه الأعداء أن يمروا إلى صـخرة القـدس ، وتأكيـده ذلـك التحدي بأنهم لن يمروا حتى على جسده وبذا يكتمل الحلم المشتعل بحب الـوطن عنـدما تتوحد القدس وجسد الشاعر في إرادة صلبة أقوى من الأعداء ، يقول في قصيدة بعنـوان (الأرض)

وهذا خروج المسيح من الجرح والريح
أخضر مثل النبات يغطي مساميره وقيودي
وهذا نشيدي
وهذا صعود الفتى العربي إلى الحلم والقدس
خمس بنات يخبئن حقلاً من القمح تحت الضفيرة
ويحلمن بالقدس بعد امتحان الربيع وطرد الغزاة
فاشتبكي يا نباتات ، واشتركي في انتفاضة جسمي ، وعودة
حلمي إلى جسدي
فيا وطن الأنبياء ... تكامل
ويا وطن الزارعين ... تكامل
ويا وطن الشهداء ... تكامل
ويا وطن الضائعين ... تكامل
فكل شعاب الجبال امتداد لهذا النشيد
وكل الأناشيد فيك امتداد لزيتونة زملتني
أيها الذاهبون إلى صخرة القدس
مروا على جسدي
أيها العابرون على جسدي

لن تمروا
أنا الأرض في جسد
لن تمروا ! [31]

– **الشوق والحنين :** وقد ارتبط برائحة الوطن المتمثلة في أشجاره المختلفة مثل السرو والصنوبر والزعتر والزيتون والتين والنخيل والكروم والجميز والبرتقال والليمون والخوخ واللوز والذرة والقمح والحبق والصفصاف والحنظل والعوسج والزنبق وغيرها ، وبالأسماء التراثية والتاريخية المرتبطة بالوطن ، مثل داود وسليمان ، وأشعياً ويوحنا المعمدان ، وعيسى ، ومريم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم، وصلاح الدين ، وحطين إلى غير ذلك .

ويظل الحنين إلى الوطن ، وتكرار الأمل بالعودة إلى وطنه يلحان على شاعرنا بسبب الغربة التي كان يشعر بها في المنفى ، وراء تجاوزه الزمان والمكان ، عبر حلمه الذي صور القدس (يوتوبيا) [32] الحب والروح ، تتجسد في شدة التصاقه بالقدس التي اقترب منها كثيراً ، مستخدماً رموزاً تاريخية شديدة الارتباط بتاريخ المدينة كحطين ، وصلاح الدين والصليبيين ، تطل علينا هذه الأحاسيس المتوقدة من قصيدة " قتلوك في الوادي " **يقول فيها :**

أهديك ذاكرتي على مرأى من الزمن
أهديك ذاكرتي
ماذا يقول البرق للسكين
ماذا يقول البرق
هل كنت في حطين
رمزاً لموت الشرق
وأنا صلاح الدين
أم عبد الصليبيين !
أهديك ذاكرتي على مرأى من الزمن
أهديك ذاكرتي

ماذا تقول الشمس في وطني
ماذا تقول الشمس ؟
هل أنت ميتة بلا كفن
وأنا بدون القدس ؟ (33)

ويخاطب شاعرنا وطنه ، يضنيه الشوق والحنين ، يموت اشتياقاً واحتراقاً وشنقاً وذبحاً يموت ، لكن حبه لوطنه لا يموت ، فتكرار الفعل (أموت) للتأكيد على شدة التعلق بقدسه من ناحية ، وإصراره وصلابته وتحديه الموت من ناحية أخرى ، كما أكثر الشاعر من الثنائيات ، فالاشتياق والاحتراق ، يشتركان في الحرارة الناجمة عنهما ، ذبحاً وشنقاً/ يشتركان في المصير وهو الموت ، والمكان الذي يتم فيه الحدث وهو العنق ، ومضى وانقضى/ الانتهاء والمضي ، وأموت ولا يموت/ فمن الموت تنبثق الحياة ، ومن الحياة يولد الموت ، والأولى في أول القصيدة ، بينما الثانية في آخرها .

أموت اشتياقاً
أموت احتراقاً
وشنقاً أموت
وذبحاً أموت
ولكنني لا أقول :
مضى حبنا ، وانقضى
حبنا لا يموت (34)

وهكذا يؤكد شاعرنا مدى تمسكه بأرضه وحنينه إليه رغم شتى أنواع الظلم والقهر الذي تعرض له عندما شرد من أرضه إلى لبنان فراراً من الاضطهاد الصهيوني ، ثم عاد إليه متسللاً لاجئاً فأصبحت هذه المعاناة جرحاً يومياً للشاعر الذي يمثل الجرح الفلسطيني الثائر ، المتمسك بالتراب والأرض والوطن ، وهو ما نلمسه في رموزه للوطن ومن هذه الرموز المرأة : وهي من أكثر الرموز انتشاراً في شعر محمود درويش ، فكثيراً ما يتماهى الوطن في الحبيبة بحيث يصبحان شيئاً واحداً .

يقول في قصيدة بعنوان " فلسطينية العينين "

فلسطينية العينين والوشم
فلسطينية الاسم
فلسطينية الأحلام والهم
فلسطينية المنديل والقدمين والجسم
فلسطينية الصوت
فلسطينية الميلاد والموت
حملتك في دفاتري القديمة
نار أشعاري
حملتك زاد أسفاري
وباسمك صحت في الوديان !
خيول الروم ! أعرفها
وإن يتبدل الميدان
خذوا حذراً
من البرق الذي صكته أغنيتي على الصوان
أنا زين الشباب ، وفارس الفرسان [35]

فها هو يشتم رائحة الأهل والأحبة في رائحة المحبوبة ، يقرأ في عينيها الساحرتين ميلاد النهار ، فهي لم تشخ ولم تخن ، ولم تمت ، فهي صامدة رغم المحن، وتخلي الأحبة الكبار عنها – وهم القادة والزعماء العرب – وانشغال قومها عنها باللهو والطرب ، يحترق الشاعر شوقاً كلما تذكر الأيام الخوالي لطفولته ، التي كنّى عنها بالأقمار لجمالها ، وقدم الجواب على الشرط ، واستخدم الفعل يشرب للدلالة على شدة الألم والمعاناة ، فكل ما هو جميل في حياة الشاعر يقبع خلف أسوار المدينة العتيقة ، المواويل اللحظات الجميلة ، والنحل / مصدر العسل والحياة الحلوة ، والنبيذ/ الخاص بالمناسبات السارة والممتعة ، والخميلة / المكان والطبيعة الجميلة التي لا تكتمل الصورة إلا بها ، يقول من قصيدة بعنوان " خارج من الأسطورة " :

ها أنا أشتم أحبابي وأهلي
فيك ، يا ذات العيون السود ... يا ثوبي المقصب
لم تزل كفاك تلين من الخضرة ، والقمح المذهب
وعلى عينيك ما زال بساط الصحو
بالوشم الحريري ... مكوكب !
إنني أقرأ في عينيك ميلاد النهار
إنني أقرأ أسرار العواصف
لم تشيخي .. لم تخوني .. لن تموتي
إنما غيرت ألوان المعاطف
عندما انهار الأحباء الكبار
وامتشقنا ، لملاقاة البنادق
باقة من أغنيات وزنابق !
آه .. يا ذات العيون السود ، والوجه المعفَّر
يشرب الشارع والملح دمي
كلما مرت على بالي أقمار الطفولة
خلف أسوارك يا سجن المواويل الطويلة
خلف أسوارك ، ربيت عصافيري
ونحلي ، ونبيذي ، وخميلة (36)

وقد يأخذ الوطن عند شاعرنا شكلاً آخر واسماً آخر أغلى من الحبيبة ألا وهي الأم .

يقول في قصيدة بعنوان : " لديني ... لديني لأعرف "

لديني ... لديني لأعرف في أي أرض أموت
وفي أي أرض سأبعث حياً
سلام عليك وأنت تعدين نار الصباح
سلام عليك ...

سلام عليك
أما آن لي أن أقدم بعض الهدايا إليك
أما آن لي أن أعود إليك ؟
أما زال شعرك أطول من عمرنا
ومن شجر الغيم وهو يمدُّ السماء إليك ليحيا ؟
لديني لأشرب منك حليب البلاد
وأبقى صبياً على ساعديك
وأبقى صبياً إلى أبد الآبدين
رأيت كثيراً يَ أمي رأيت
لديني لأبقى على راحتيك
أما زلت حين تجيئني تنشدين
وتبكين من أجل لا شيء
أمي !
أضَعْتُ يديّاَ على خصر امرأة من سراب
أعانق رملاً أعانق ظلاً
فهل أستطيعُ الرجوع إليك إليَّا ؟
لأمك أمٌّ
لتين الحديقة غيمٌ
فلا تتركيني وحيداً شريداً
أريد يديك لأحمل قلبي
أحنُّ إلى خبز صوتك أمي !
أحنُّ إلى كل شيء .
أحنُّ إليَّ .. أحنُّ إليك [37]

وهكذا يتماهى الوطن في الأم ، باعتبارهما شيئاً واحداً بالنسبة للشاعر فكلاهما يشكل ميلاد الشاعر ويوفر له أسباب الحياة والعيش والدفء والحنان ، وما أحوج الإنسان الفلسطيني الذي يمثله محمود درويش إلى مثل ذلك .

ويصور محمود درويش القدس عذراء أو مثالاً يستحيل وجوده إلا في خيال الشاعر حيث جعل المرأة المعادل الموضوعي للوطن بل لوجوده ، حيث صور الأرض المباركة أرض المسيح عليه السلام ، امرأة من حليب البلابل ، **يقول في قصيدة بعنوان** " **سرحان يشرب القهوة** "

لماذا شربتم زيوتاً مهربة من جراح المسيح ؟
وسرحان يضحك في مطبخ الباخرة .
يعانق سائحةً ، والطريق بعيد عن القدس والناصرة
هنا القدس
يا امرأة من حليب البلابل ، كيف أعانق ظلي ...
وأبقى ؟
خلقت هنا ، وتنام هناك
مدينة لا تنام ، وأسماؤها لا تدوم ، بيوت تغيَّر
سكانها ، والنجوم حصى .
هنا القدس
يا امرأة من حليب البلابل ، كيف أعانق ظلي ..
وأبقى [38]

– **الصمود والمقاومة :** إن الشوق والحنين الذي تعجُ به قصائد محمود درويش التي تمثل الوجدان الفلسطيني ، غرست في شعبنا الفلسطيني وفي شاعرنا روح التحدي والصمود والمقاومة أمام العنف والبطش الصهيوني الوحشي .

يقول في المقطع الخامس من قصيدته التي بعنوان (بطاقة هوية)

سجل
أنا عربي

سلبت كروم أجدادي
وأرضاً كنت أفلحها
أنا وجميع أولادي
ولم تترك لنا .. ولكل أحفادي
سوى هذي الصخور ..
فهل ستأخذها
حكومتكم ... كما قيلا ؟ !
إذن سجل برأس الصفحة الأولى
أنا لا أكره الناس
ولا أسطو على أحد
ولكني ... إذا ما جعت
آكل لحم مغتصبي
حذار .. حذار .. من جوعي
ومن غضبي !! (39)

وقد استطاع محمود درويش في هذه القصيدة أن يجمع بين البراءة والخطورة من خلال أوضاع التعبير حين انتقل بين المخاطب والمتكلم بمنطق إنساني لا يستطيع أحد إنكاره . ويؤكد شاعرنا أن شعبنا الفلسطيني كسنابل القمح لا تنتهي ، وكلما ماتت سنبلة أخرجت سنابل فهو باق مهما تعرض للطرد والقتل والتنكيل . كطائر الفينيق يخرج من الرماد .

يقول في قصيدة بعنوان (عن إنسان)

يا دامي العينين والكفين !
إن الليل زائل
لا غرفة التوقيف باقيةٌ
ولا زرد السلاسل !
نيرون مات ، ولم تمت روما ...

بعينيها تقاتل !
وحبوب سنبلة تموت
ستملأ الوادي ، سنابل [40]

ويستثير شاعرنا أمته العربية لتنهض من سباتها ، من موتها ، من خوفها ، من كل شيء لتنتفض ، إنها بالتأكيد أقوى من الحكام ، ومن العدو الجاثم على أرضها ، المنتهك مقدساتها ، فعليها أن تأخذ بالأسباب ، بأن تعد العدة عملاً بقول الله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) [41]

وذلك تناص مع قول الشاعر (أعدُّ لهم ما استطعت) . وهي دعوى لطي مرحلة عصيبة في تاريخ أمتنا وابتداء مرحلة جديدة مشرقة تتخذ من الكفاح المسلح طريقاً نحو تحقيق القمح / مصدر الغذاء الذي تقوم عليه الحياة ، والقدس/ عين الوطن وعاصمته المقدسة ، وأغلى ما في حياة العربي ، والمستحيل رمز إصرار الإنسان نحو تحقيق أهدافه في الحياة .

يقول في قصيدته التي بعنوان (طريق دمشق)

أنا ساعة الصفر
جئت أقول :
أحاصرهم قاتلاً أو قتيل
أعد لهم ما استطعت .. وينشق في جثتي قمر المرحلة
وأمتشق المقصلة
أحاصرهم : قاتلاً أو قتيل
وأنسى الخلافة في السفر العربي الطويل
إلى القمح والقدس والمستحيل [42]

ويرفض شاعرنا الموت والدموع والمرجفين من قومنا ، ويطلب من العاصفة ، وهي هنا تأخذ أكثر من دلالة – أن تقتلع كل الضعفاء ليبقى الأقوياء القادرون على التصدي والصمود للعدو الغاشم .

يقول من قصيدة بعنوان (وعود من العاصفة)

وليكن
لابد لي أن أرفض الموت
وأن أحرق دمع الأغنيات الراعفهْ
وأعري شجر الزيتون
من كل الغصون الزائفهْ
فإذا كنت أغني للفرح
خلف أجفان العيون الخائفة
فلأن العاصفة
وعدتني بنبيذ .. وبأنخاب جديدهْ
وبأقواس قزح
ولأن العاصفةْ
كنستْ صوت العصافير البليدة
والغصون المستعارة
عن جذوع الشجرات الواقفهْ [43]

وقد تناول شاعرنا الصمود والمقاومة الفلسطينية الباسلة التي أحالت جنازات الشهداء أعراساً فلسطينية ، وقد كتب محمود درويش ديواناً كاملاً أسماه " أعراس " سنة 1977م ، في الوقت الذي كان من الممكن أن يطلق عليه اسم "جنائز" أو " دموع" ولكنه يستقبل الشهيد بالزغاريد والأفراح ، لأن الشهيد في وجدان الفلسطيني قد تماهى مع العريس في ليلة زفافه ، لما بينهما من شبه ، فكل منهما يشيع بزفة وجموع المحتفلين به ، وكل منهما مخضب باللون الأحمر الحناء والدماء ، وكل منهما يزف إلى عروسه ، وإن كان الشهيد يزف إلى حور العين ، وكل منهما يخرج من بيت العائلة إلى بيته الجديد " فالشهيد عند شاعرنا روح لا تموت ، فمن هنا لا يعبأ بظواهر الحياة العادية ، لا يعبأ بالألم والذبح والتشريد فتلك كلها أمور موجهة للهيكل الخارجي، وليست قادرة على أن تنال من الرؤية والحضور للقضية العادلة " [44] ولفظة العرس من أكثر الألفاظ شحناً بالدلالة الجديدة .

ففي قصيدة أعراس نجده يمزج بين الحب والاستشـــهاد ، والزغاريـــد والـــدماء والرقص والطائرات التي تقصف ، إنها صورة تمثل المشهد الفلسطيني أو العرس الكامل على الـــطريقة الفلسطينية ، فكل همجية الاحتلال لا تنال من الصمود الفلسطيني ، **يقول**

عاشقٌ يأتي من الحرب إلى يوم الزفافْ
يرتدي بدلَتَه الأُولى ويدخلْ
حلبة الرقص حصاناً
في حماس وقرنفلْ
.....
وعلى حبل الزغاريد يُلاقي فاطمة
وتغنّي لهما
كل أشجار المنافي ومناديل الحداد الناعمة
.....
ذبل العاشقُ عينيه
وأعطى يَدَهُ السمراء للحنّاء
والقطن النسائيّ المقدس
وعلى سقف الزغاريد تجيء الطائرات
طائرات
طائرات
تخطفُ العاشقَ من حضن الفراشة
ومناديل الحداد
وتُغنّي الفتيات :
قد تزوَّجْتَ
تزوَّجْتَ جميع الفتيات
يا محمَّدْ !
وقضيتَ الليلة الأُولى
على قرميد حيفا

يا محمد !
يا أمير العاشقين
يا محمد [45]

ويأخذ الصمود والمقاومة عند شاعرنا بعداً جديداً حين يستلهم كل التراث الفلسطيني بما فيه التراث اليهودي والمسيحي باعتباره نتاج أرضنا الفلسطينية .
ويتناول شاعرنا رموزاً تتعلق بتاريخ اليهود ليكسبها بعداً فلسطينياً ، كما جاء في مقطوعته (السابعة عشرة من ديوان أحبك ولا أحبك) ، **يقول فيها**

يا أطفال (بابل)
يا مواليد (السلاسل)
سيعودون إلى القدس قريباً
وقريباً تكبرون
وقريباً تحصدون القمح من ذاكرة الماضي
وقريباً يصبح الدمع سنابل
آه يا أطفال بابل
ستعودون إلى القدس قريباً
(هللويا) [46]
(هللويا) [47]

ويماهي شاعرنا بين سبي اليهود وتشردهم إبان السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد وبين تشريد الفلسطينيين ونزوحهم عن ديارهم من قبل الصهاينة سنة 1948م ، وبعد ذلك يماهي بين عودة المسيح إلى القدس وبين عودة أطفال فلسطين إلى القدس وهم يرددون (هللويا) بمشيئة الله وهي محررة من رجس الصهاينة بفضل سواعد أطفال الحجارة ، وحينذاك تتحول الدموع إلى سنابل رمز الفرح والاستقرار في الوطن .

وفي مطولة بعنوان " مأساة النرجس " وملهاة الفضة " يؤكد شاعرنا أن أورشليم وهيكلها بل توراتها هي توراة كنعان ، وليس توراة العبرانيين ؛ إذ كل ما على هذه الأرض الكنعانية هو ضمن تراثها ، وملك لها ، **يقول**

عادوا إلى ما كان فيهم من منازل ، واستعادوا
قدم الحرير على البحيرات المضيئة ، واستعادوا
ما ضاع من قاموسهم : زيتون روما في مخيلة الجنود
توراة كنعان الدفينة تحت أنقاض الهياكل بين صور وأورشليم [48]

ويسوغ محمود درويش استخدامه لرموز تتعلق بتاريخ اليهود بقوله

" إنني اعتبر نفسي كفلسطيني ، وكنتاج هذه الأرض الفلسطينية ، أحد الذين يملكون حـق أن يرثوا كل تاريخ الإبداع والثقافة التي جرى على هذه الأرض، ومنهـا التـوراه " [49].

وفي قصيدة بعنوان " المزمور الحادي والخمسون بعد المائة " يواصل شـاعرنا استلهام الرموز التراثية اليهودية ليوظفها في خدمة الصمود والمقاومة في فلسطين ، فهـا هو الصليب يقاتل إلى جانب الهلال يتصديان للعدو الصهيوني الغاشم .

صوت حريتي قادم من صليل (السلاسل)
(أورشليم) : التي عصرت كل أسمائها
في دمي
و(المزامير) صارت حجارة
رجموني بها
(أورشليم) : التي أخذت شكل زيتونة
دامية
صار جلدي حذاءً
للأساطير والأنبياء
(بابلي) أنت طوبى لمن جاور الليلة الآتية
وأنا فيك كوكب
يسقط البعد في ليل (بابل)
وصليبي يقاتل
(هللويا) ...

(هللويا) ...
(هللويا) ... (50)

ولا يزال محمود درويش يستلهم رموزاً من التراث اليهودي لها علاقة بالأرض المقدسة مثل : (هيكل القدس) ، (أشعياً) ، (أورشليم) ليجعلها تقف إلى جانب الحق الفلسطيني

يقول في قصيدته (مديح الظل العالي)

كم أحبك ، كم أحبك ، كم سنة
أعطيتني وأخذت عمري ، كم سنة
وأنا أسميك الوداع ، ولا أودع غير نفسي كم سنة
وعدوك بالآتي وحين أتاك ، وأتاك الحنين إلى السفينة ، كم سنة .
لِمَ تذكري قرطاج ؟
هل كنا هواءً مالحاً كي تفتحي رئتيك للماضي
وعدوك باللغة الجديدة ، استعادوا الميتين مع الجريمة
هل أنا ألفٌ وباءٌ للكتابة أم لتفجير (الهياكل) ؟
كم سنة
.....
أنادي أشعياً : أخرج من الكتب القديمة مثلما خرجوا أزقة (أورشليم) تعلق اللحم الفلسطيني فوق مطالع العهد القديم
وتدعي أن الضحية لم تغير جلدها
يا أشعياً ... لا ترثِ
بل أهجُ المدينة كي أحبك مرتين
وأعلن التقوى
وأغفر لليهودي الصبي بكاءه .. (51)

يستحضر شاعرنا شخصية يهودية مناصرة للحق ، تتبأ بدمار اليهود عقاباً لما ارتكبوه من جرائم وفساد أخلاقي ، وهو ما حصل لهم في السبي البابلي وكأنه يطلب منه

مرة ثانية أن يقف مع الحق الفلسطيني لتحرير المدينة المقدسة من فساد الصهاينة وجرائمهم البشعة التي لا يقبلها نبي عظيم مثل (أشعياً) ، ولم يكن نبي اليهود أشعياً آخر من يتنبأ بزوال الدولة اليهودية بجرائمها الوحشية ، بل نجد علماء يهود في القرن العشرين يتنبأون بذلك ، فهذا العالم الرياضي أنشتاين يصرح في يناير 1939م بقوله:" إنني من أنصار الصهيونية ، ولا أدري لماذا يطالب الصهيونيون بإنشاء دولة يهودية "[52]

وهذا الدكتور ماجنسى عميد الجامعة العبرية الذي عارض في سنة 1948م تأسيس دولة يهودية ، لا يشترك فيها العرب أهل فلسطين قائلاً :

" إن معرفتي بطبيعتي اليهودية تجعلني أشك في وجوب قيام دولة إسرائيل على حدود مسلمة ، ومثل هذه الدولة لن تكون إلا مؤقتة لا تدوم "[53] .

وبهذا يكون قد شهد شاهد من أهلها ، فضلاً عن الحقيقة التاريخية الحتمية التي تؤكد زوال هذه الدولة الصهيونية الوحشية بإذن الله طال الزمن أم قصر .

من أهم نتائج البحث

- أثبت محمود درويش أن شعرنا العربي قادر على استيعاب واقع النكبة المأساوي وأبعادها .
- كان شاعرنا على درجة عالية من الوعي والثقافة والنضج الفني ، مما جعل قصائده في النكبة نابعة من مشاركة عاطفية وفكرية معاً ، فكان شاعراً وناقداً وقارئاً في الوقت نفسه .
- استخدم محمود درويش التراث الإنساني كله ، وأحسن توظيفه ، بما في ذلك التراث اليهودي .
- استفاد محمود درويش من النكبة في تفجير موهبته الشعرية ، وتعميق تجربته الشعرية .
- كما أنه وظف النكبة ليجئ شعره علامة فارقة ، ونقطة تحول في تاريخ الشعر العربي ، سواء على صعيد شكل القصيدة أو مضمونها .

- استطاع استخدام الأسلوب الدرامي الحيوي ، لا سيما في مطولاته ، موظفاً كل تقنياته .
- ارتبط حب محمود درويش للوطن بحبه للمرأة ، باعتبارها المعادل الموضوعي للأرض ، فغدا الوطن حبيبة وأماً ، وعذراء ، وامرأة من حليب البلابل .
- ارتبط حب محمود درويش بالأرض ، وبكل ما له علاقة بالأرض من دوال ومدلولات كالحجر والصخر والتراب والطين والرمل ، والوحل ، والماء والشجر والنبات والعشب حيث يتوحد جسده بالأرض .
- لم يكن شاعرنا رغم المعاناة سوداوياً أو متشائماً في شعره ، فلم تزده النكبة والمعاناة والألم إلا صلابة وصموداً وتحدياً .
- استطاع محمود درويش أن يطوي صفحة الندب والبكاء ووصف النكبة ، وآثارها التي سادت شعرنا العربي قبل درويش ، من أساليب خطابية حماسية إنشائية ، إلى الأسلوب الهامس الدرامي الحيوي ، الذي يعتمد على الحجة والمنطق والعقل، والحقائق التاريخية التي أحسن شاعرنا توظيفها لصالح قضيته .
- انتصار الحق الفلسطيني بإذن الله مهما بلغت وحشية الصهاينة وتعنتهم ، عاجلاً أم آجلاً .

المصادر والمراجع

1. حميدة ، صلاح – الخطاب الشعري عند محمود درويش ، الطبعة الأولي 2000م ، مطبعة المقداد غزة .
2. درويش ، محمود 1987م : ديوان محمود درويش – المجلد الأول – ط12 دار العودة – بيروت .
3. زريق ، قسطنطين 1948م: معني النكبة – دار العلم للملايين – بيروت.
4. سدوم ، سميرة 1995م: رسالة ماجستير بعنوان الرمزفي شعر محمود درويش – القاهرة.
5. السلطان ، فؤاد 1999م: القدس في الشعر العربي المعاصر – ط1 مكتبة مدبولي – القاهرة.
6. طوقان ، إبراهيم 1955م: ديوان إبراهيم طوقان ، ط1 – دار الشروق بيروت سنة .

7. فصول – مجلة 1986م : العدد الأول والثاني أكتوبر .
8. فضل – صلاح : أساليب الشعرية المعاصرة – دار قباء القاهرة .
9. قباني – نزار – الأعمال السياسية الكاملة ، الجزء الثالث ، الطبعة الخامسة 1993م ، بيروت .
10. كامبل ، روبرت 1996م : أعلام الأدب العربي المعاصر – الشركة المتحدة للتوزيع – بيروت .
11. لقاء ، دفاتر ثقافية ، 1996م مع محمود درويش العدد 3 يونيو .
12. نافع، بشير : الإمبريالية الصهيونية والقضية الفلسطينية ط1 – دار الشروق القاهرة .
13. النبهاني ، نقى الدين 1950م: إنقاذ فلسطين – ، مطبعة إبن زويدن .
14. النقاش ، رجاء 1993م: ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء – ط1 – دار سعاد الصباح.
15. النقاش ، رجاء 1971م: محمود درويش شاعر الأرض المحتلة – ط3 – دار الهلال
16. ياسين، عبد القادر ، 2000م ، الإفلات من فخ النكبة – ط1 المركز القومي للدراسات والتوثيق .غزة.

---

[1] . إبراهيم طوقان – ديوانه –ص 86 .

[2] . تقي الدين النبهاني – إنقاذ فلسطين – مطبعة ابن زيدون – دمشق – 1950م – ص 144 .

[3] . قسطنطين زريق – معنى النكبة – بيروت – دار العلم للملايين 1948 ص 5 .

[4] . د. بشير نافع – الإمبريالية الصهيونية والقضية الفلسطينية – دار الشروق – القاهرة – ط1 – 1999م ص 143 .

[5] نزار قباني : الأعمال السياسية الكاملة ج3 ، الطبعة الخامسة – منشورات نذار قباني ، بيروت ص69.

[6] سمير ستوم رسالة ماجستير بعنوان الرمز في شعر محمود درويش ، القاهرة 1995 ، ص11.

[7] . رجاء النقاش – محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ، دار الهلال – ط2 – سنة 1971م ص 200 .

[8] . مجلة فصول ، المجلد السابع ، العددين الأول والثاني ، أكتوبر سنة 1986، ص 159 .

[9] . روبرت ب. كامبل – أعلام الأدب العربي المعاصر – الشركة المتحدة للتوزيع – بيروت 1996 ، ص 595

[10] . محمود درويش ديوانه ــ المجلد الأول ص 72 .

[11] . تعمد الشاعر قلب همزة الوصل إلى همزة القطع للتأكيد على هويته التي يحاول العدو طمسها ، وقد تكون للإيقاع والوزن .

[12] . محمود درويش – ديوانه المجلد الأول – ص73 .

[13] . محمود درويش – الأعمال الكاملة – دار العودة – بيروت – ط 12 – 1987 ص 356 – 357 .

[14] . محمود درويش – الأعمال الشعرية – المجلد الأول ص 339 .

[15] . محمود درويش – ديوانه – أحبك ولا أحبك – المجلد الأول ص 487 .

[16] . محمود درويش – الأعمال الشعرية – المجلد الأول – ص 38 .

[17] . الأعمال الشعرية – المجلد الأول – المجلد الثاني ص 53 .

[18] . محمود درويش – الأعمال الكاملة – المجلد الثاني ص 7 .

[19] . محمود درويش – الأعمال الكاملة – المجلد الثاني ص 331 .

[20] . محمود درويش – ديوان حصار لمدائح البحر ص 126 .

[21] محمود درويش – الأعمال الكاملة ، ص281 .

[22] . محمود درويش – الأعمال الكاملة – ص 496 .

[23] . ديوان حصار – لمدائح البحر ص 14 .

[24] . الأعمال الكاملة ص 96 – 97 .

[25] . محمود درويش – الأعمال الكاملة – ص 87 .

[26] . المرجع السابق ص 112 .

[27] . محمود درويش – المجلد الأول 176

[28] د. صلاح أبو حميدة : الخطاب الشعري عند محمود درويش ، ص65 .

[29] . السابق ص66 .

[30] . محمود درويش – الأعمال الكاملة المجلد الأول – ص 351 .

[31] . محمود درويش – المجلد الأول – ص 622 .

[32] . (يوتوبيا) utopia : كلمة إغريقية ، معناها " لا مكان " استعملتها نازك الملائكة ، للدلالة على مدينة شعرية خيالية ، لا وجود لها إلا في أحلامها ، ولا علاقة لها بيوتوبيا التي تخيلها الكاتب الإنجليزي توماس مورفي في كتاب ألفه باللغة اللاتينية سنة 1516م ورسم فيه صورة سياسية إدارية للجزيرة المثلى كما يريدها الكاتب ، قياساً على جمهورية أفلاطون [ديوان نازك الملائكة – المجلد الثاني – دار العودة – بيروت 1986م] .

[33] . محمود درويش ، المجلد الأول ص 412 .

[34] . محمود درويش ، المجلد الأول ص 178 .

[35] . محمود درويش – الأعمال الكاملة – المجلد الأول – ص 83 .

[36] . محمود درويش ، المجلد الأول ، ص 175 .

[37] . محمود درويش ، الأعمال الكاملة – المجلد الثاني ص 352 .

[38] . محمود درويش – المجلد الأول – ص 448 .

[39] . محمود درويش – ديوانه المجلد الأول ص 74 .

[40] . محمود درويش – الأعمال الكاملة – المجلد الأول ص 13 .

[41] . سورة الأنفال – الآية (60) .

[42] . محمود درويش – الأعمال الكاملة – المجلد الأول ص 544 .

[43] . محمود درويش – ديوانه الأعمال الكاملة – المجلد الأول ص 175– 176 .

[44] . انظر : رجاء النقاش – ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء – دار سعاد الصباح – ط 1 – 1992 ص 321 .

[45] . محمود درويش – الأعمال الكاملة ص 583 .

[46] . لفظ ورد في التوراه نشيد جماعي أو جوقة يتردد صداه في نهاية الفقرة خاتمة الإصحاح

[47] . ديوان محمود درويش – المجلد الأول – ص 400 .

[48] . محمود درويش – ديوانه المجلد الثاني ص 428 .

[49] . لقاء – دفاتر ثقافية مع محمود درويش – العدد 3 يونيو 1996م ص 5 .

[50] . ديوان محمود درويش – المجلد الأول – ص 291 .

[51] . محمود درويش – المجلد الثاني – ص 29 .

[52] . د. فؤاد السلطان – القدس في الشعر العربي المعاصر – مكتبة مدبولي – القاهرة – 1999م ص 19 .

[53] . السابق ص 19 .